معارك نقدية

بحثا عن العقل خلف ستائر الاحساس

مجاهد عبد المنعم مجاهد

تشير مجموعة «بيت في الريح» * للاديب الراحل ضياء الشرقاوي عدة تساؤلات اكثر مما تثير عدة اجابات .. فالمجموعة علامة استفهام كبيرة تجاه مجموعة من القضايا الفنية والفكرية على السواء ..

ان الافق الذي يخيم على هذه المجموعة القصصية هو أفق عالم متشيىء اصبح فيه الانسان مغتربا وتحول الى مجرد شيء من الاشياء .. انه عالم حضارة منهارة ومدنية مزقت العلاقات الانسانية .. بل هي مدنية لم تبق داخلها على أية علاقات .. في هذا العالم يجد الانسان نفسه وحيدا في العراء.. يسكن غرفة في عمارة لكنه لا يرى الا ثعبانا هو ثعبان المدينة يحدق فيه من وراء الزجاج.. واصبح كل هم الانسان مراقبة هذا الثعبان الذي ليس الا تعقد المجتمع وفقدانه لادميته وتحوله الى اداة رعب للانسان الوحيد المقذوف به في العراء ..

ان عالم ضياء الشرقاوي عالم فيه الانسان مطارد دائما: مطارد برجال منتصف الليل الذين يحولون الناس الى اشخاص مصابة بجنون العظام .. وهي تهرب وتهرب ولكنها تعود دائما الى من منه تهرب .. تعود الى رجال منتصف الليل .. وهم خلال المطاردة يحلمون بزمان قادم لكنه زمن لعين ، هو زمن رجال منتصف الليل .

وفي هذا الزمن اللعين ليس للانسان بيت ، فبيته في الريح في مراكب لا تستريح .. فالحرية التي يبحث عنها الانسان غائبة .. ولا يملك الانسان الا ان ينشد الى حبل انسان كسيح فوق معقد فالزمن زمن التقييد الى كرسي ذي عجلات لا يملك الانسان منه فرارا ..

وفي هذا الزمن اللعين أيضا العلاقات الانسانية والتواصل الانساني مطقوع .. الانسانة نائمة على «شيزلونج» .. والانسان الآخر مسترخ في كرسيه .. ولا تواصل .. والتحولات داخل الانسان ليست الا تحولات فقدانه للدفء البشري ..

وفي هذا الزمن اللعين ليس الناس الا ورقا كرتونيا .. شعراء مجوفين ينشدون المستحيل عن غد للشباب للشعراء يتفجرون كالقنابل لكن المخلوقات سقيت بسم الاموات الذي لا يرى .. وهذا العالم أصبح كلوحات الطبيعة الصامتة ، البشر فيه مجرد كؤوس بيرة وقطع من ثلج والعواطف ميتة ..

وهذا الزمن اللعين هو زمن الانفصال والعوالم المتباعدة .. عالم طلبة ثائرين مفصول عن عالم أناس باحثين عن جنس يلتقط وسط الطرقات .. عالم يجذب الانسان فيه الانسانة داخل احدى دورات المياه في مقهى عام ..

والعالم اللعين يزداد جحيمه .. وعلاقات الداخل فيه حولت الانسان الى وحش حتى انه يحبس فيه الثعبان مع العصافير الرقيقة في قفص واحد .. ولا يكتفي الانسان بقسوته الداخلية .. بل هو ينقل هذه القسوة الى الآخرين حتى تصبح علاقات الداخل واحدة ..

وهكذا يبني ضياء الشرقاوي عالما لم يعد عالم العصر الجميل .. أصبحنا نعيش على هامش هذا العصر الجميل .. أصبحنا نعيش في عماراته الحضارية التي أفقدت الانسان انسانيته ولم تبق منه سوى فضلاته .. ولم تبق له علاقات دافئة سوى أن يعري الانسان نفسه أمام الآخر الا ليريه فضلاته .. انه عالم السكنى في الطوابق العلوية حيث يفقد الضوء ويختلط النهار والليل وتضيع آدمية الانسان في الطابق الثالث والثلاثين وحيث تقرأ الصحف نفسها عدة أيام لانها خالية من الحوادث الجديدة وحيث ينتهي الانسان في جردل تنحط فيه آدميته .. انه عالم التشيؤ وغربة الذات وتصبح الحياة فصلا في جحيم .. اذا حدث فيه شيء وردي فهو مجرد حلم وردي عابر يصحو منه الانسان على لهب جحيم العلاقات المتشيئة ولا تبقى الا أفراح الجسد لكنها أفراح مالكة هذه العمارة الرامزة للمدينة المتشيئة والتي هي أشبه بأخطبوط يسلب الساكنين ذواتهم الانسانية .. انه عالم التضليل وما من أحد من سكان المبنى يعرف ان المرأة العجوز ـ الحضارة البالية ـ هي صاحبة هذه العمارة ـ الحضارة .. حيث ترتكب الجرائم التي لا يعلم أحد عنها شيئا واذا عرفت تقطعت الاوصال لاكتشافها . فأسفل العمارة ـ الحضارة مقطوع الصلة بأعلى العمارة ـ الحضارة .. وربما مالكتها قد ماتت منذ زمن وأكلتها الديدان دون

* صدرت هذه المجموعة عن دار المعارف ـ ١٩٧٨ .

أن يعي سكانها .. لكنها ما زالت تمتلكها بكل المدنية المتشيئة حيث الجميع في جحيم .

لقد استطاع ضياء الشرقاوي أن يرسم عالما من الجحيم لا أبواب فيه ولا شبابيك .. وما من بارقة ضوء .. فالبشر حجارة والعلاقات غائبة والناس فيه دمى تتحرك بحساب وتتكلم بحساب وليست لها أعماق .. ولهذا خيم الاعتام على هذا العالم فكرا وفنا على السواء .

لقد اختار ضياء الشرقاوي طريقا خاصا له يعتمد على رصد العالم من خلال الانطباعات .. وهي انطباعات متناثرة متباعدة .. وقف عند حدود الوصف الظاهري للحضارة والمدنية .. من خلال الاحساس يرى العالم ثعبانا .. من خلال الاحساس يرى العصر الجميل مأساة .. من خلال الاحساس لم يبق حتى التواصل الجنسي .. انه الرصد الحسّي .. لقد جرد المؤلف الشخصيات من هويتهم .. من زمانيتهم .. من مكانيتهم على طريقة فرانز كافكا .. لكن كافكا عندما جعل أبطاله شفرات أبقى وسط تشيؤ أبطاله شيئا غير متشيىء هو رفض هؤلاء الابطال ـ الشفرات لهذا العالم الجحيمي .. واذا كان بطل قصته « التحول » يموت وهو حرصار يكنس وسط النفايات فانه يدين هذا العالم .. ان كافكا يتابع تراث الفن العظيم وهو ان **العمل الفني لا بد أن يحمل دلالة أخلاقية** لانه موجه للشعور .. أما عالم ضياء الشرقاوي فهو وصف من خلال المنظور الطبيعي للعالم المتشيىء دون أن يحمل ادانة له .. السبب في هذا انه لم يطرح علل وأسباب هذه العلاقات اللاانسانية المتشيئة .. وأرسطو حدثنا منذ القديم ان الفن تعبير عن المستحيل الممكن لا الممكن المستحيل ... والمستحيل الممكن مثل بطل كافكا الصرصار مستحيل أن يحدث عمليا لكنه يمكن أن يحدث نفسيا لان عالم الموظف أصبح جحيما بيوقراطيا والاسباب والعلل كامنة من الداخل .. وأرسطو ينص على ضرورة طرح العلل والاسباب القائمة بالضرورة أو بالرجحان لان هذا يجعل القارىء يستنير ويتعلم .. وقد تمكن كافكا من رصد علل وأسباب عالم التشيؤ من خلال رصد الحياة المكتبية ، أما عالم ضياء الشرقاوي فهو لا يطرح العلل والاسباب ولهذا يقف عند حدود الرصد الخارجي .. ولقد حدثنا هيغل : **ان الفن هو العقل وهو يتبدى من خلف ستائر الاحساس** .. والعقل عند هيغل ليس مجرد ملكة للمعرفة .. **ان العقل عند هيغل هو حركة الحياة وسيرورتها ، انه الحياة وهي تستشعر الحياة وتنزع الغربة عن العالم** .. فكأن الفن تعبير عن سيرورة الحياة من خلف الرصيد الاحساسي .. أما عالم ضياء الشرقاوي فهو واقف عند حدود الرصد الاحساسي ، أما سيرورة الحياة فقد تجمدت .. قد يكون العالم متشيئا .. لكن تشيؤه جاء نتيجة « عملية » انتزع بها حتى هذا التشيؤ من شيء غير متشيىء .. من شيء انساني .. لكننا لا نجد هذا الشيء الانساني .. بل نجد تعميما .

ان عالم ضياء الشرقاوي الفني هو عالم ما يزعم انه عالم الرواية الجديدة القائمة على جعل الاشياء هي الابطال .. لكنه عالم رواية جديدة تنسى ان بطل العمل الفني لا يمكن الا أن يكون الانسان ، ذلك الانسان الذي يضاعف ذاته في العمل الفني ليرى نفسه جميلا .. ولهذا عبث ما يفعله ألن روب غرييه أو ناتالي ساروت بزعم خلق رواية فينومينولوجية قائمة على العودة الى الاشياء .. انه التجديد الاجوف بزعم خلق الرواية الضد .. لقد حدثنا جورج لوكاتش أن الفن معانقة للخصوصية والعمومية .. ولقد راينا عند ضياء الشرقاوي الخصوصية في الافراد وسلوكهم وقد فقدوا آدميتهم .. لكننا لم نر العمومية والافراد يخرجون من حالتهم الفردية الى ادراك المصير حيث ان الفن يوقظ النائمين ويوحدهم .. فهيرقليطس يقول ان الأيقاظ عالمهم مشترك بينما النائم عالمه وحده .. ان عالم ضياء الشرقاوي مصطبغ بصبغة من صمويل بيكيت حيث الحوار المتقطع والحوار المفقود ، لكن فن بيكيت يحمل دلالة احتجاج على هذا العالم الخالي من المعنى ، لان بيكيت رغم التجديد يفهم ان الفن كما قال أرسطو استكمال للطبيعة ، استكمال لها بخلق الانسان الجميل ، ومن هنا جاء احتجاج بيكيت على فقدان المعنى .. أما عالم ضياء الشرقاوي فهو رصد طبيعي من خلال الانطباعات الحسية للعالم الذي فقد معناه لكنه لا يحمل ادانة بطرح العلل والاسباب وبث الحركة فيه بحيث نلمح من خلال الحركة الى أين المسير ..

لقد توفرت لضياء الشرقاوي كل القدرات الفنية : من أسلوب فريد .. من براعة في التقاط الثورة الزمنية لرصد أحداث قصصه .. توفرت له قدرة التشويق .. توفرت له درجة من الاعتامية تثير الفضول .. توفرت له قدرة ادارة الحوار .. توفرت له قدرة اقتصاد التعبير الفني .. لكن مجموعته في الوقت نفسه هي صيحة تحذير لقصاصينا الجدد : ان التجديد قاصر على الاسلوب فقط وطريقة العرض البناء .. **لكن التجديد في الفن لا يستطيع أن ينزع فتيل الادانة الاخلاقية في العمل الفني وانه عقل واحساس متشابكان وبالتالي فان العمل الفني موجه لمنطقتي العقل والاحساس معا عند القارىء** .. أما أن ينفذ العمل الفني الى منطقة الاحساس فقط دون العقل وبشكل كله تعتيم فانه يجعل مجموعة « بيت في الريح » تطرح أسئلة أكثر منها اجابات شكلا ومضمونا .

مدينة المقطم ـ القاهرة